قراءة في ميراث النبوة

إطار إسلامي للصحوة الإسلامية

أنور الجندي

دار الفضيلة

مقدمة

إطار إسلامي للصحوة الإسلامية

قال رسول الله ﷺ :

« يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » (١).

(١) الصحوة ليست ظاهرة طارئة ، بل هى أعمق وأشمل من مجرد ظاهرة .

ومن دلائل أصالة هذه الصحوة أنها مستمرة ؛ ذلك أن (رسالة الإسلام) مدعوة لتنقذ العالم كرة أخرى بعد أن سقط فى براثن الوثنية والمادية والانهيار الخلقى ، وأن الأزمة تولد الهمة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك .

وإذا ثابر أهل الحق على حقهم ، ولم يتركوا الميدان لغيرهم كان النصر فى النهاية حليفهم ، كما قال جمال الدين الأفغانى : وأبلغ ماحملت دعوة الإسلام إلى العالمين التمسك بالقرآن الكريم كأساس موجود بين المسلمين وإلغاء العصبية المذهبية ، وقد أكد علماء الإسلام فى كل عصر أن باب الاجتهاد مفتوح ، وأن القرآن يشيد بالمخترعات والعلوم الحديثة ، وأن دعوته إلى وسطية بين طرفى الجمود والتقليد .

والقرآن الكريم يتحدث عن (الدفع) أى الحراك الاجتماعى بين الأمم والمذاهب باعتباره سنة من سنن الله تبارك وتعالى فى الاجتماع البشرى ، وقانوناً من قوانين هذه الحياة .

قال تعالى : ﴿ **ولولا دفعُ الله الناس بعضَهُم ببعض لفسدت الأرضُ** ﴾ [البقرة ، الآية ٢٥١] كما يتحدث عن إرادة التغيير ، وأن الله تبارك وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقد جمع الإسلام بين القيم المتكاملة التى تمثل « وسطية الإسلام » : الروح والمادة ، القلب والعقل ، العروبة والإسلام ، الدنيا والآخرة .

أما منهج المعرفة الإسلامى فهو جماع بين العقل والوحى .

---

(١) انظر كنز العمال (٢٨٩١٨) .

كما يقرر الإسلام « أخلاقية المجتمع » والأخلاق جزء من ثوابت العقيدة ، ويدعو الإسلام إلى ثبات الذاتية الخاصة بحيث لاينصهر فى فكر آخر مع قبول مايوجد فى الحضارات ، مما يؤكد حاجة الأمم إلى اقتباس الأساليب والوسائل دون الأصول .

كما يقرر الإسلام المسئولية الفردية إلى جوار الثبات الأخلاقى .

كما يقرر الإسلام مفهوم الثوابت والمتغيرات .

كما أقر الإسلام الحرية المنضبطة ، ورفض الحرية المطلقة .

★★★

وقد حمل العرب رسالة الإسلام وتبليغها للعالمين ؛ وكان العرب بالإسلام سادة العالم وقادة الأمم ؛ وكان عليهم أن يحملوا أمانة الدعوة والاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام دون أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، بل كان عليهم أن يكونوا مبلغين صادقين .

★★★

(٢) والتغيير فريضة شرعية لحماية حياة المسلمين من الجمود أو التخلف ، وتتمثل فى عدة مواضع :

(أ) ضرورة العودة إلى الله تبارك وتعالى .

(ب) تحرير الولاء لله تبارك وتعالى ولرسوله وللمؤمنين .

(ج) الإعداد الروحى يقوم على تربية الأمة على مفهوم الإسلام الشامل .

(د) بناء إنسان العقيدة وإحياء فريضة الجهاد .

(هـ) إعداد العدة المانعة وتحصين الحدود والثغور .

﴿ وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيل تُرهبونَ به عدوَّ الله وَعدوكُم ﴾ [سورة الأنفال ، الآية: ٦٠] .

(٣) وهذا يتطلب الاهتمام بالتربية الإسلامية لأبناء المسلمين بمفهوم الإسلام الجامع (تربية العقل والقلب والجسم) وتقوم التربية الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة على دعائم الإيمان فى النفس والضمير ، وإيجاد الأجيال القادمة وتحصين كيانهم النفسى والاجتماعى .

ولما كان الإسلام لاينصر أمة تعطل شريعته وحدوده ، ولا ينصر أمة تعطل الفرائض ،

ولا ينصر أمة تحل ما حرم الله ، ولا ينصر أمة يكون نظامها وتعليمها فى أيدى أعدائها ، ولا بد من فتح باب الاجتهاد أمام المستجدات فى المجتمع ، وفتح باب الجهاد أمام المتطوعين لتحرير القدس .

ومن هنا تظهر ضرورة إقامة الوحدة الجامعة .

وعلى الفكر الإسلامى أن يتوحد مستعلياً على الإقليمية والطائفية والمذهبية ، وأن ينفض عن كاهله صيغ التبرير والتملق التى زادته رهقاً ، وصرفته عن رسالته الحقيقية .

(٤) ولنحذر الشباك المطروحة للصيد المتمثلة فى حركات الماسونية والروتارى ولا لالون كلبى وغيرها .

هذه المنظمات قامت لإيجاد الانشقاق والانحلال بين شعوب الأمة الإسلامية .

وعلينا أن نحذر أيديولوجيات الرأسمالية والليبرالية وفكرة القومية والإقليمية والطبقية والصراع الطائفى .

وعلينا أن نحذر نظريات الفيض والإشراق والحلول والاتحاد ودعاوى الروحية الحديثة وتحضير الأرواح .

ومذاهب البهائية والفينيقية والفرعونية وأن نعمل على تثبيت الإطار المعرفى الجامع بين العقل والوحى معاً كمصدرين متكاملين للمعرفة الإنسانية .

★★★

وعلينا المحافظة على الذاتية الخاصة وخصوصية الانتماء ، فنحن عالم مختلف تمام الاختلاف عن عالم الغرب بعيد عن وثنية أرسطو فى الغرب ووثنية بوذا فى الشرق ، ولا يمكن أن ننصهر فى إحداهما .

قال رسول الله ﷺ : « إن لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو »[1] .

(٥) خصائص الحركة الإسلامية :

١ - **العالمية والإنسانية** : فالعلم فى الإسلام حق مشاع وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب والعناصر والأجناس .

---

(١) أخرجه الطبرانى (٨ / ١٩٨) .

٢ – **الشعبية** : شعبية هذه الحركة الوحدة الإسلامية التى قامت على مجهودات شعبية وعلى تقدير علماء المسلمين للعلم .

٣ – **الحركة** : وتتجلى فى المسافات للحصول على العلم والتوسع والاختصاص فى الدراسة .

٤ – **الصورة والعمل** : فقد امتاز علماء المسلمين بعلو الهمة أو الشهادة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكلمات الحق عند سلطان جائر ، والصمود فى وجه الأباطيل .

٥ – التركيز على العلم النافع الحامل للهداية ، والكامل للنجاة .

(٦) الجمع بين الروح والعقل :

(ا) جمع الإسلام بين السماحة والوسطية ، والاعتدال بين الفرد والجماعة ، ويستمد أصوله من الوحى ، فيعطى العقل الإسلامى مساحة للفهم واتخاذ القرار وقد جاء عطاء الإسلام بعيداً عن التعصب والتشدد .

(ب) وحدة الصف وفق منهج الشريعة الإسلامية السمحاء ، وبعيداً عن المذهبية والحزبية والتفرقة .

(ج) الخط البيانى الإسلامى الآن يرتفع فى اتجاه القمة .

معالم الثقافة الإسلاميـــة :

١ – الطابع المميز لهذه الثقافة والخصائص الجوهرية :

(أ) القرآن هو المصدر الأول لمقومات الأصالة .

(ب) تحديد المنابع الأصيلة للثقافة .

(ج) يربط القرآن الكريم دائماً بين المعرفة والثقافة والنتائج العملية المترتبة عليها من حيث النفع أو الضر .

(د) يربى القرآن العقل والبصيرة على الوحدة من خلال الكثرة وتلمس الرباط الموحد الذى ينظم ما يبدو متنافراً متبايناً .

(هـ) ربى القرآن المسلمين على ملكة النقد النزيه مع الدقة والأمانة فى نقل أو رواية أقوال الغير ، وضرورة التفرقة الحاسمة بين العلم والظن .

(و) الربط بين جانبى الفكر والوجدان مع تأكيد أهمية الربط بين النظرية والتطبيق .

(ز) أن العقيدة الإسلامية النقية لم تكن يوماً حجر عثرة فى سبيل تطور الحياة الإسلامية .

وأن عقيدة القضاء والقدر لاتؤدى إلى الجمود أو الموقف السلبى . (محمد كمال جعفر) من قواعد الإسلام الثابتة : عدم التفريط فى الثوابت فى سبيل تحقيق التقدم .

(ح) الاختلاف فى الفكر الإسلامى يتم فى دائرة الوحدة : فهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

(ط) الثقافة الإسلامية لها خصوصيتها الخاصة بها والمرتبطة بالعقيدة والتاريخ واللغة .

ومن هنا فإن علينا :

– تحرير المناهج التعليمية والثقافية من التبعية .

– حماية وجودنا من نظريات الفصل بين الماضى والحاضر أو احتقار الذات، أو تفسير التاريخ تفسيراً مادياً ، أو ماركسيًا ، أو النيل من بطولات المسلمين أو امتهان الصحابة بتحويلهم إلى سياسيين محترفين .

(ى) قيم الأخلاق : يرى كثير من علماء الأخلاق أن قيم الأخلاق عامة ولازمة للإنسان فى كل مجتمع وفى كل عصر ، وأنها قيم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو البيئات .

وهى قيم عامة وإنسانية ، ولا تتعارض مع العقل ، وهى جزء من الدين السماوى المنزل .

وتتوخى قيم الأخلاق كمال الفرد وصلاح المجتمع .

وقد جعل الإسلام العقل وسيلة لفهم كل عقيدة سليمة وتحقيق كل سلوك كريم .

والإسلام لايرد قيم الأخلاق والحسن والقبيح فى الأفعال الإنسانية إلى العقل ؛ لأن العقل الإنسانى ليس بمأمن من العى والحصر ولأنه لايكون فى كل حالاته بمعزل عن الهوى أو العاطفة تماماً ؛ وبذلك ليس ثمة ما يضمن لنا صدق أحكامه حيث تفضل لنا نوعاً من السلوك على نوع آخر .

والإنسان حين يقدم على السلوك يكون أكثر إسراعاً فى اتباع مافيه هوى نفسه ثم يبرر لنفسه هذا السلوك .

يقول ابن عطاء : « إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه ، فإنه لايثقل على النفس إلا ماكان حقاً » .

وقيم الأخلاق فى الإسلام وسائر الديانات السماوية تخاطب الفطرة والوجدان ، وهى أيسر من أخلاق الفلاسفة .

ومن خطأ ظن أصحاب الفلسفات المادية أن القيم الدينية تعوق التقدم الحضارى والمجتمع .

وحين يستبطن الإنسان ذاته يشعر بأن فيه معنى زائداً على المادة .

(دكتور / التفتازانى) .

(ك)حضارة الإسلام حضارة أخلاقية تجمع بين (الفكر والعمل) ولا تقدس الفكر وترفعه فوق العمل كما كان الشأن فى الحضارة اليونانية القديمة ، كما أنها تجمع بين (المادة والروح) وترى أن المجتمع لا يهمل الحوافز الروحية إلى جوار الحوافز المادية فى عملية التطور ، ولذلك كانت الأمة الإسلامية الآخذة بهذه الحضارة أمة وسطاً .

﴿ **وكذلكَ جعلناكُم أمةً وَسَطاً** ﴾ . [سورة البقرة ، الآية : ١٤٣] .

﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا** ﴾ .

[سورة القصص ، الآية : ٧٧]

ولا يعنى الإسلام بالقيم المجردة ؛ لأنه دين عمل يحكم على الإنسان بما يتمثل فى سلوكه العلمى من القيم .﴿ **وقلِ اعملوا** ﴾ [سورة التوبة ، الآية ١٠٥] .

أهم هذه القيم :

١ – **التوحيد** : فقد حارب الإسلام الشرك والوثنية .

٢ – **العلم** : لايقتصر العلم فى الإسلام على العلم بالأحكام الشرعية ، وإنما يمتد ليشمل كل علم يدفع الجهل ، واعتبر الفقهاء العلوم الدنيوية النافعة فروض كفاية ؛ وكذلك الصناعات والمهن .

٣ – **حرية الفكر** : وهى قيمة ذات فعالية إيمانية فى التطور الحضارى مضادة لقيمة أخرى سلبية ، وهى التقليد أو الجمود الفكرى ، ونهى الإسلام عن التقليد للقيم الضارة .

وقد حث القرآن العقول على البحث فى الكون والبحث فى النفس : ﴿ **سنُريهم آياتِنا فى الآفاقِ وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٥٣] .

ويدعو الإسلام إلى الاستفادة من تجارب الأمم السابقة .

٤ – **قيمة العمل** : شرط العمل أن يكون نافعاً للفرد والمجموع .

٥ – **الأمانة وإتقان العمل** .

٦ – **المساواة بين الناس بلا فروق** بين عربى أو أعجمى إلا بالتقوى .

وحارب الإسلام كل ألوان التفرقة العنصرية ونزعات العداء والعصبية ، ورفع من شأن المرأة ، واعترف لها بشخصيتها المدنية وأباح لها التصرف فى أموالها .

٧ – **دعا الإسلام إلى التعاون بين أفراد المجتمع** . والإسلام لايفرق بين الفردية المطلقة ولا الطبقية ، إنما ينمى فى الإنسان شعور الانتماء إلى الجماعة ، ويعارض كل صور استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

٨ – **قيمة العدل** : ألا يميل الإنسان إلى هوى فى نفسه يوقعه فى ظلم الآخرين ، العدل الاجتماعى الذى يتجلى فى أن يجد كل فرد فى المجتمع كفايته .

٩ – **قيمة الشورى** : أساس بناء النظام السياسى الإسلامى .

١٠ – **الحضـــارة** : نعنى بالحضارة مجموع الفكر والعمل فليست الحضارة فى التقدم المادى وحده ، ولكنها فى الارتقاء الإنسانى الجامع ، فالتصور للحضارة على أنها مادة فقط قاصر كل القصور ولابد أن ترتبط الحضارة بالقيم الخلقية .

ولكل حضارة قيم : وارتقاء حضارة من الحضارات معناها أن لدى أصحابها قيماً معينة آمنوا بها وعملوا على تحقيقها ، ومن الضرورى تأكيد دور الإنسان فى بناء الحضارة .

وعقل الإنسان وشعوره ووجدانه هى جميعاً وراء كل أدب وفن .

أما وسائل الإنتاج فهى ليست إلا عاملاً من بين عوامل كثيرة فى بناء الحضارة .

والفكر غير خاضع لقوانين المادة .

★★★

مَدخَل

يقول جمال الدين الأفغانى مقدماً القرآن الكريم للأمة الإسلامية قبل مائة عام كمنهج ربانى أصيل يستطيع أن يحقق لهذه الأمة وللإنسانية جميعاً أملها فى العدل والإيمان وتطبيق شريعة الله ومنهجه بالعودة إليه والتماس نوره : « مادام القرآن الكريم يتلى بين المسلمين ، وهو كتابهم المنزل ، وأملهم الحق ، وهو القائم عليهم بأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنفعة من كل سبيل ، فإننا لانرتاب إلى عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيقدمون على من سواهم فيدفعون الملاحة والمنازلة والمصاولة حفظاً لحقوقهم » .

« إن القرآن حى لايموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ ، فارجعوا إليه وحكموه فى أحوالكم وطباعكم » .

« إن الحركة الدينية بالدعوة إلى القرآن كناية عن الاهتمام بقلع مارسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص فى فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل » .

« لابد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .» .

« إن القرآن وحده سبب الهداية والعبرة فى الدعاية وما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم » .

★★★

الباب الأول
الإسلام وقضية الإنسان

الإنسان : الفرد والجماعة والمجتمع والحضارة كيف رسم الإسلام حقوق الإنسان ومسئولياته ، وكيف أخرج الإسلام الإنسان من العبودية التى كانت ظاهرة طبيعية لإمبراطوريات اليونان والرومان والفرس والفراعنة ، وكيف كانت العبودية أساس هذه الحضارات ، بينما ألغى الإسلام الرق وأقام للإنسان قيماً أساسية تحفظ له وجوده وكيانه .

الإسلام يقرر أن القضية الكبرى فى المجتمع البشرى هى قضية الإنسان وهى القضية التى جاءت الأديان لترسم للإنسان الطريق فيها ، وهى فى نفس الوقت موضع الخلاف الواسع والعميق بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى .

فالفكر الإسلامى يقوم على دعائم الدين الخاتم (الإسلام) الذى جاء بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع (روح ومادة) بينما قام الفكر الغربى على إعلاء الإنسان وتكوينه ماديّا استمداداً من عدة عناصر : هى الفلسفة اليونانية المادية وشذرات من المسيحية نقلت إليها ، وليس الدين الحق – مادخل الفكر الغربى من معطيات الإسلام وهى فى الأغلب : « العلوم التجريبية » التى قامت على أساسها الحضارة المادية .

أما الإسلام فإنه يقرر عدة أسس راسخة :

أولاً : الإنسان خلق لحمل أمانة الاستخلاف فى الأرض من منطلق إقامة المجتمع الربانى على الأرض .

ثانيا : أمد الله تبارك وتعالى الإنسان بمفاتيح العمران ووسائط السعى من خلال

مسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقى والإيمان بالغيب والبعث والجزاء الأخروى .

ثالثاً : من هنا كان لابد له من الانطلاق إلى العمل من نقطة البدء الحقيقية ، بالإيمان بالله تبارك وتعالى خالقاً ورازقاً .

﴿ **إياك نعبدُ وإياك نستعينُ** ﴾ [سورة الفاتحة ، الآية : ٥] .

بمعنى أن الأمور تبدأ من الله تبارك وتعالى وتنتهى إليه سبحانه :

رابعاً : قدم القرآن منهجاً كاملاً – وقدم عالم الغيب (ماوراء المادة) الميتافيزيقا ، وهى تتقرر من خلال الإيمان بالله الواحد الأحد ، وبالرسالة الخاتمة والوحى والغيب .

★★★

من خلال هذا المنهج يتحدد موقف المسلم من الفكر الغربى الذى يقوم على انشطارية الحياة من حيث إنكار الغيب والبعث ، وإحلال مصطلح الطبيعة بدلاً من الألوهية ، واعتبار المسئولية هى مسئولية المجتمع لا الفرد ، وتقرر مذهب النسبية الأخلاقية المرتبطة بالعصور والبيئات ، بينما يقدم الإسلام : ثبات القيم الأخلاقية واستمرارها والخضوع لها .

★★★

وهذا الطرح يوصلنا إلى الحقيقة المؤكدة وهى :

« تكامل الإسلام »

فقد أسقط الإسلام الحاجز بين الحياتين : حياة الدنيا وحياة الآخرة ، وأنهى هذا الصراع الدامى بينهما كأنهما عدوتان لدودتان . قال الله تعالى : ﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٧٧] .

وأسقط الإسلام الحاجز بين الدين والعلم منذ البداية ، والإسلام يعلن احتفاءه بالعلم .

وقد أسقط الإسلام الحاجز بين الروح والجسد ، فقد كانوا يقولون إن هذا البدن هيكل الشيطان .

بينما يقول الإسلام : (إن لبدنك عليك حقاً)[1] . (فتحى رضوان) .

★ ★ ★

كذلك فقد خلق الإسلام الشخصية الإنسانية المتوازنة التى لا إفراط فيها ، ولا تفريط ، والتى توازن بين حاجات الجسد . وحاجات الروح : ﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٧٧] .

★ ★ ★

« تميز الإسلام » حقيقة قيمية أساسية لها عدة عناصر ، فقد ألغى الإسلام فكرة الإباحية التى كانت قائمة فى المجتمعات القديمة المعاصرة والنابعة من فكرة (فصل الدين عن الدنيا) بحيث يكون هناك معياران للسلوك: واحد خاص والآخر عام ، فأصبح الفرد يحكم ما رسمه الدين فى نفسه عن طريق الشعائر والمعاصرة صورة للمجتمع تحمل فى ضميره كل القيم الاجتماعية التى تحض على التكامل والتعاون .

★ ★ ★

وقد رفض الإسلام (مادية اليهود) و (رهبانية النصارى) وأمر بالتوسط ﴿ **قل أمر ربى بالقسط** ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٩] .

﴿ **يا بنى آدم خذُوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرّم زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامةِ** ﴾ [سورة الأعراف ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢] .

فالحياة : الإسلام أسلوب حياة يمتزج فيه الدينى بالدنيوى ، ويختلط المادى بالمعنوى اختلاط الروح بالجسد ، فينصهر الجانبان فى وحدة عضوية لا ينفصل فيها أحدهما عن الآخر .

وليس للمسلم فلسفة أساسية من صنع فكره كإنسان وإنما مرده إلى وحى الله تبارك وتعالى ، وسنة الرسول ﷺ ، وما وقع عليه الإجماع .

والإنسان المسلم على خلاف الإنسان الآخر ، فهو لا ينوء تحت وطأة الخطيئة الأصلية التى تحكم عليه وعلى نفسه بالسوء والفساد ، والمثل الأعلى الثقافى عند المسلمين هو أن

---

(١) أخرجة الترمذى (٧٤٨) .

يجعل عبادة الله مطمح نظره ، بينما كان المثل الأعلى عند الإغريق أن يجعل الدولة نصب عينيه ، والحرية فى مفهوم الإسلام تقوم على التحرر من قيد الوثنية والجهل والتقليد .

والحياة فى مفهوم الإسلام ثنائية تقوم على التوازن بين المادة والروح ، فإذا طغت إحداهما على الأخرى اضطربت وانحرفت ، والقلق الذى يشمل المجتمعات غير الإسلامية لا سبب له إلا فقدان هذا التوازن .

ولما كانت الحياة على الأرض محكومة بنواميس ثابتة تسيرها قوة علوية ، فإن التوازن يحفظها من التفكك والانهيار .

ويرفض الإسلام المغالاة فى المحافظة وفى التجديد ، فكلاهما يخرجه عن الفطرة وقوانين الحياة الطبيعية التى تجمع بين القديم والجديد والماضى والحاضر .

ويرفض الإسلام المغالاة ؛ فالقديم والجديد عنصران مهمان من عناصر الحياة ، وهما متلازمان وضروريان ، ويقرر الإسلام التوازن بين القديم والحديث .

ولابد من تطويع الدنيا لأمر الله ونصرة تعاليمه ، ومقاومة أكبر علل الحضارة الحديثة : مما ينكره الإسلام وهو عبادة الحياة ولا يزال الجسم الإسلامى يرفض العضو الغريب ، ولا يزال الكيان الإسلامى يرفض الجسم الغريب .

★ ★ ★

والمسلم لم يُخلق ليندفع فى التيار ، ويساير الركب البشرى حيث سار ، بل خُلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملى عليه إرادته (إقبال)

★ ★ ★

وقد رفض الإسلام التطور على حساب الأصالة والقيم الأساسية ، كما رفض تضحية القيم العليا فى سبيل التقدم المادى ، ولم يخضع الإسلام مفاهيمه للحضارات وأهواء الأمم .

وليس فى المناهج والدعوات المطروحة من شىء إلا وعند المسلمين مثله أو خير منه ، وهو هنا مقطوع الصلة بالله ولكنه فى الإسلام متصل .

لقد كان موقف الإسلام واضحاً فهو لا يُحتوى ولا ينصهر .

★ ★ ★

إن أساس حرية الاختيار فى الإسلام تقوم على الاعتقاد بأن الأصل فى الإنسان الخير على خلاف ماتقول به بعض الأديان من أن الإنسان خلق خاطئاً ، وخلاف ما جاءت به

التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان فى أول أمره دنساً فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط فى سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال ، بينما يقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاماً .

★ ★ ★

الإسلام – كما نص القرآن – ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى المرسلين منذ آدم إلى محمد ﷺ .

لم يرسل محمد ليؤسس ديناً جديداً فى أمة معينة ، ولكنه جاء لتصحيح الخطأ الذى طرأ على الأديان ، وليرفع التحريف الذى أصاب الدين الأصلى الذى أرسل الله به المرسلين .

★ ★ ★

الإسلام هو الذى أعطى شعوبه تلك القوة التى صارعت قوى الأكاسرة والقياصرة ودول أوروبا فى الحروب الصليبية وفى الاستعمار .

ولقد حمت قوة الإسلام مبادئها التى تدين بها ولم تعتمد مبادئ خصومها .

ولقد وضع الإسلام للناس منهجاً كاملاً للحياة والفرد والمجتمع ولم يفرض هذا المنهج فرضاً بل ترك للناس الحرية فى قبوله متى شاءوا .

★ ★ ★

ومنذ أن شكل الإسلام لونه المميز على خريطة العالم : فهو عالم مستقل له طابعه المفرد ﴿ **صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغة** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٣٨] .

ومنهجه المتكامل المتجدد (بالتوحيد والإيمان والأخلاق) ومن ذلك اليوم أصبح للمسلمين قبلتهم الواحدة التى لم يحيدوا عنها ، تهوى إليها قلوبهم وأفئدتهم بالإيمان والفكر والنظر ولم يكن لهم بعدها – منذ ذلك اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها – قبلة أخرى .

ولا تزال الكعبة المشرفة وستظل مركز الدائرة ، ليس فى أرض الإسلام ، بل فى الكوكب كله .

لقد كانت رسالة الإسلام أعمق حركة من حركات التحرر والتجديد عرفها تاريخ الشعوب فى العالم كله لأنها بادرت منذ اللحظة الأولى إلى تحرير الإنسان من ربقة الوثنية والثنوية والطاغوت ، وكل سلطان مارسته العقائد البدائية على المجتمعات القديمة واستقرت مقاليده فى طبقة الكهنوت .

﴿ يريدونَ أن يتحاكَموا إلى الطاغوتِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٦٠] .

أى إلى أولئك الكهنة الذين كانوا يزعمون الاتصال بالغيب ، وأعلنت رسالة الإسلام مساواة الأجناس البشرية أمام العدل الإلهى ، وأزالت ضروب التباعد بين الشعوب ، فلم تقو عروش كسرى وقيصر على صد تيار التحرر الذى تدفق من جزيرة العرب ، وتحطمت الطبقة الساسانية الفارسية المعلقة على صخرة المساواة الإسلامية ، وانجلى الاستبداد البيزنطى عن سواحل حوض البحر الأبيض المتوسط . (دكتور / صلاح الدين الناهى) .

★ ★ ★

تكامل القيم فى الإسلام ركيزة أساسية حيث يقوم على أساس :

توازن – بين الفرد والجماعة .

ملاءمة – بين العقل والقلب .

مطابقة – بين الكلمة والسلوك .

أما الإيمان فهو يعنى الاعتقاد بفكرة اعتقاداً جازماً ممزوجاً بعاطفة يجعلها تسيطر على العقل والقلب فى آن واحد ، وأعلى درجات الإيمان ، هى الإيمان بالله تبارك وتعالى .

أما المعرفة فهى العلم بشىء دون الإيمان به والعاطفة تعطى الفكرة قوة وإنسانية وحيوية ولابد من ضرورة استواء الفكر والعاطفة بحيث لا ينفصلان وكلاهما ضرورى .

فالعاطفة مضيئة بأنوار الفكر ، والفكر مشوب بحرارة العاطفة .

وبالجملة فإنه يمكن تعريف الإسلام باختصار وتركيز شديدين بأنه وإعادة صياغة الإنسان ووضعه فى مكانه الصحيح من الكون : الإنسان الذى حركة تاريخه الذاتى والخارجى إلى أن يخرج مرات ومرات عن إطار فطرته الأصيلة المعجونة بإعجاز من الروح والمادة والفكر والدم والأعصاب والوجدان والعواطف والشهوات ، وكلها تبعده عن مساره المرسوم فى العالم ولا تكون نتيجة هذا الخروج والإبعاد إلا تمزقاً فى الذات البشرية وانحرافاً عن طرائق تعاملها مع العالم ، ومن ثم تواجه شقاء ونكسة وانهياراً .

ومن هنا كانت دعوة الله تبارك وتعالى للإنسان لإعادته إلى فطرته التى فطره الله عليها وبعثه فى طريقه المرسوم لكى يحيا ويسهم إسهاماً فاعلاً فى إعمار الأرض التى ارتبط بها كمستخلف مسئول أمام الله تبارك وتعالى .

منهج القرآن

منهج القرآن هو الذى حرر الإنسانية من سذاجة التفسير الكنسى ، وجفاف المنطق العلمى .

فالوحى الإلهى يقدم الأسلوب والمنهج القائم على الفطرة والمستقبل لحاجات النفس والروح ، وليس هناك أسلوب غيره يمنح هذه الهبة العظمى ، وقد خاطب القرآن الكينونة البشرية والروح الإنسانية الحية ، ولم يكن اللاهوت هو الشكل المناسب .

ولقد كانت معجزة القرآن : معجزة بيان وفكر وذكر وأصالة (ميراث الأنبياء) وأكبر ما أعطى القرآن : الفكر والذكر (معرفة قدرة الله وإعطاؤها قدرها) والبيان . والارتفاع فوق طفولة البشرية بالنظرة الشاملة ذات الأبعاد التى ترتبط بالأزل والأبد ، والدنيا والآخرة وتستمد أول نقطة انطلاقها من الله تبارك وتعالى ثم تعود إليه بعد إتمام الجولة .

لقد وضع القرآن المسلم بين حدين هما الوعد والوعيد .

المنهج القرآنى فى تناوله للنفس الإنسانية

اتبع الإسلام ثلاثة سبل فى توجهه نحو الإنسان :

١ – صنف التصرفات الإنسانية إلى خيرة تعد فضائل (الصدق والصبر والإحسان) ، وإلى شريرة وتعتبر رذائل مثل : الخيانة والحسد والضغينة .

٢ – سن مجموعة من الأخبار والتشريعات وأتبعها بما يتناسب من كفارات وعقوبات ، إيماناً من الإسلام بأن النفس الإنسانية فى حاجة إلى حوافز وضغوط ليضطرها إلى الطاعة .

٣ – دعا مع تأكيده على مبادئ العدل والحق إلى التحلى بفضائل الصبر والعفو والرحمة والتسامح ومراعاة كرامة الإنسان .

★ ★ ★

١ – يعتمد القرآن الكريم فى التبليغ والإرشاد والإقناع على جميع مدارك الإنسان من عقل ووجدان وحواس .

ويسعى إلى التنسيق بينها بغية التوافق والتناغم فهو حين يستعمل كلمة (عقل)فهو يدمج فيها هذه المدارك بسبب تداخلها وتفاعل بعضها مع البعض الآخر .

٢ – يساير الطبيعة الإنسانية فى ماهى مجبولة عليه من خصال متقابلة كالحب والكره والخوف والرجاء والحسنة والعقوبة وغيرها فيستغل حركة هذه المشاعر للنفاذ إلى ذاتها واستثمارها فلا ينكرها ولا يكبت إحداهما لفائدة الأخرى ، بل يستغلهما معاً ولكنه يوجهها الوجهة الصالحة لفائدة الإنسان فى الدارين الدنيا والآخرة .

فالحب ينبغى أن يكون لما فيه الخير والحق والعدل وأكده لتفيض هذه القيم اللهم إلا إذا كان فيه خير واستسلام لأمر الله .

قال الله تعالى : ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢١٦] .

والقرآن يجعل الإنسان يعيش بين الخوف والرجاء لما لهاتين الحالتين من تأثير على النفس التى تعرف بالرغبة فى اتقاء العذاب والآلام وفى النفور من اليأس ومداخل ذلك يترك له الإسلام باب التوبة مفتوحاً للرجوع عن الغى والضلال .

قال الله تعالى : ﴿ **فمن اتقى وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

[سورة الأعراف ، الآية : ٣٥]

★★★

والقرآن لا يحتقر الحسية ، لأنها تدخل فى الطبيعة الحيوانية للإنسان ، بل يدعو إلى التوازن بينها وبين الروحية والمعنوية وعدم المغالاة فى إحداهما على حساب الأخرى .

قال تعالى : ﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنس نصيبكَ من الدنيا** ﴾ .

[سورة القصص ، الآية : ٧٧]

٣ – يحرص على تقوية وتزكية الأدوات التى من شأنها أن تعين النفس على الاستقامة ، فتدعو إلى التفكير والتدرب على اكتشاف الحقائق .

قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليَدَّبروا آياتهِ وليتذكر أولو الألباب** ﴾ .

[سورة ص الآية ٢٩]

★★★

لقد انطلقت الثقافة الإسلامية بكل أصولها وفروعها من القرآن : تفسيراً ودراية وتأويلاً وفهماً مما حفل به الفكر الإسلامى من مذاهب ونظريات دينية ومذهبية وعقلية كلها كانت انطلاقاً من القرآن ورغبة فى الوصول إلى الحقيقة .

وكان القانون (الفقه) فى مقدمة ما استنبطه المسلمون من القرآن .

ولوكان القانون الأول فى الوطن الإسلامى والعربى وضعياً غير قرآنى لما طبع العقل العربى بالقانونية ؛ ذلك لأن المسلمين والعرب قاطبة كونوا ثروتهم الفكرية انطلاقاً من القرآن وحول القرآن .

أما قبل الإسلام ، فقد كان الفقه الرومانى هو السائد فى العالم طبعته عقلية السادة فى مقابل العبيد ، والقوة فى مقابل الضعف ، والحاكم فى مقابل المحكوم .

القرآن الكريم والشريعة الإسلامية

تتميز الشريعة الإسلامية بالشمولية والمرونة مما جعلها صالحة للتطبيق على مناحى الحياة المختلفة ، وأن أحكامها تستوعب التطور وتلبى مستجدات العصر الحاضر ، وأنه يمكن الاستفادة من تجارب المدارس الفقهية المختلفة مما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية كما أن باب الاجتهاد يجب أن يظل مفتوحاً ضمن قواعده وأصوله ، وأن تشتمل هذه الأسس على الشروط التى يجب توافرها فيمن يتولى الاجتهاد سواء أكان فرداً أم جماعة أم مؤسسة .

★★★

ولقد نظم القرآن الكريم العلاقة بين الناس ، فكان المصدر الأول للقانون والشريعة فى المجتمع الإسلامى الذى أراد له أن يكون مجتمع المؤمنين المنظم على أساس القانون ، وليس على أساس الهوى ، ولم يكتف القرآن بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى والخلق الكريم ، ولكنه وضع نظاماً كاملاً لهذه العلاقة بين الناس .

★★★